فى الغموض سر رهيب ، وفى عسر المنال رغبة فى النوال .

ولم يكف هذا الانسان أن يلزم الجد مع الماء ، وأن يتخذ منه معيناً على الحياة ، وطريقاً الى الممالك والديار ، وانما أراد أن يمزح مع البحر ، وأن يلهو بالشاطىء ، فاتخذته الغيد مسرحاً يخطرن فيه ، وميداناً يصلن فى أرجائه ، سلاحهن الجمال ، وعدتهن الرشاقة ، واتخذه الرجال معرضاً يرون فيه مالم يكن من قبل الى رؤيته سبيل ، ويشاهدون فيه ماليس يوجد عند غيره ، واتخذه هؤلاء وهؤلاء ملهى وملعباً ومصطافا ، فلم يبق للبحر من هيبته الا اتساع مداه وتراكم لججه ، ولم يعد للبحر من رهبته الا خواطر التأمل فيه ، الناظر اليه حين يخيم عليه الظلام ، وتضن عليه السماء بنورها .

أما السماء فلم يبلغ منها أهل الأرض مابلغوا من الماء ، وإنما تنافسوا فى العلو اليها ، وتسابقوا فى الارتفاع الى ذراها ، فحالت الطبيعة بينهم وبينها ، وأوقفتهم عند حد من الفضاء محدود ، لايكاد المرء يعدوه حتى يضطر الى الهبوط أو يورد نفسه موارد الهلاك ، فتعلق الناس بالريح ولم يبلغوا عنان السماء ، ووقفوا منها على الابواب ولم يبلغوا منها الصميم ، وقديماً تمنى فرعون لو أنه بلغ عنان السماء ، وقال : « ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب ، أسباب السموات فأطّلع الى إله موسى » فهلك عنه سلطانه وصد عن السبيل .

وهكذا بعدت السماء عن أهل الأض فعزت عليهم وخارت دونها قواهم ، وأسرفت فى النأى عن الناس ، فما زالت وراءها أسرار هيهات للمرء أن يكشف عنها ، ومازال فيها من الافلاك والاجرام ماليس يعرفه الناس إلا أمانى ، وقد كان أهل الأرض يفرحون لرؤية السحاب ، ويستبشرون بنزول المطر ، ويضحكون لبكاء السماء ، فما زالوا يرون فيها مصدر الخير وسر الطبيعة وينبوع الحياة ، وما زال الناس يلتمسون ضوء النهار من السماء ، ويفتقدون فيها ضياء البدر أو سناء النجوم حين يخيم الظلام ، فحفظوا للسماء قدسيتها ، وقدروا لها هيبتها ، وعرفوا الجن فى الأرض ، وقالوا الملائكة فى السماء .

والناس يوقنون أن الله معهم أينما حلوا ، موجود أينما وجدوا ، قد كان فى كل زمان ، وهو كائن فى كل مكان ، ولكن شاءت قدسية السماء ألا تلهج الألسنة بالدعاء حتى ترفع اليها الأكف وتتطلع نحوها الأبصار ؟

الاسكندرية

محمد قدرى لطفى

من الفصول التى يجب أن تقرأ مراراً

العاطفة فى الأدب

لفوستاف لانسون

الأستاذ بكلية الآداب فى باريس

ترجمة الأستاذ محمد روحى فيصل

— ١ —

تعوق العقلَ عن التأمل والتفكير أمور شتى وعلل مختلفة ، أهمها فى نظرنا هذا الاعتقاد السائد أن نشاط الذهن يخمد العاطفة المشبوبة ، ويقتل النزوة الحية ، ويحبس القلب الخفاق ، فلا أمانى ترف ، ولا أحلام تطيف ، ولا ذكرى تلوح ، ولا هوًى يبوح ، وانما العقل كله قد نأى عن ركدة الخمود ، واستيقظ من نوم الجمود ، رأىٌ فى إثر رأى ، وخاطر يتلوه خاطر ، ومقدمة تسوق الى نتيجة ، وتحليل يسلم الى استنباط ! إنه ليحسن بالأديب المبين أن يخنق صوت الفكر ويطمس معالمه ، ثم لا يُنطق سوى قلبه ، ولا يترجم عن غير لبه . إذن لخلت لغته من ألوان الزينة المصطنعة ، وصفا أسلوبه من أصباغ البهرجة الزائفة ، ثم تراءت النفس على سجيتها الموهوبة من خلال السطور ، وبرزت نقية رائعة من بين سواد المداد .. !!

هذه دعوى — على جمالها وروعتها — عاثرة خاسرة ، ووجه الخطل فيها أن القلب لا يستغنى عن العقل ولا يستطيع أن ينكره فى حال من الأحوال . فان قوى النفس متحدة مشتبكة ، يتصل بعضها ببعض ، وتتداخل احداها فى جارتها الأخرى ، ويندس الضعيف منها فى القوى ، والكامن فى البارز ، والوديع فى المتمرد . وانما القلب الكبير تراه عند من له عقل كبير ، والطُّلعة البصير يفطن الى ألطف ما يضطرب فى الفؤاد من الميول والنزعات ، ويشعر بأدق العواطف وأهدإ الأحاسيس ، وعلى قدر ما يكون العقل من الثراء والخصب ، أو الفقر والجدب ، يكون القلب عظيما رفيعا ، أو وضيعاً خسيسا ! ! هؤلاء القديسون الصالحون ورجال البر والاحسان ، هم أصحاب عقول نيرة تناهض عقول العباقرة والمفكرين ، وقد يكون فيهم سذج غافلون فما يعني هذا أنهم

حيوانات هائمة سائمة ، ولئن كانت محبة الله و برُّ عباده استجابة روحانية لنوازع القلب ومطالب الشعور ، فان تأسيس المدارس والأندية وبناء المستشفيات واللاجئ صورة من صور المنطق المنظم ، ومظهر من مظاهر الرأى والتدبير .

— ٢ —

يستبد الهوى المبرح ، ويجور الألم البالغ ، ويطغى الهيجان الثائر ، فتختبط النفس وتهتاج الأعصاب ويغلى الدم ، ثم تنطلق من شفاه العانى همسة محزونة ، أوصرخة يائسة ، أو قولة قوية جليلة ، تجرى خالدة على وجه الدهر ، وتذهب فى الناس مثلا سائراً وحكمة مضروبة ! أما النقد الحديث فما يحفل بهذا النوع من الكلام البليغ الجامع ، ولا يمنحه التعظيم والاجلال مثلما تمنحه الأمم والأجيال ، وانما يراه من عمل الراوى المؤرخ الذى سرده لزملائه المعاصرين ولمن يليهم الى يومنا هذا ، ويستنكر نسبته الى القائل الحساس ، والمؤرخ — بخلاف الصحافى — يملى على الحادث رأيه ومذهبه ، ويسرد الرواية على نحوه وأسلوبه ، ويسكب الكلم فى قالبه ومثاله

ويغضب الرجل فيحول باطنه ، ويختل ظاهره ، ويضطرب احساسه ، ثم تستبين طبيعته الصامتة كما خلقها الله ، وكوّنتها الوراثة ، ووجهتها البيئة !! يقذف الكلمة من فيه فاذا هى كالسيف مضاءً ونقاوة ، واذا هى جماع فطرته النائمة ، وعادته الراسخة ، وغريزته الكامنة ..!!

لغة القلب آهة أو أنة ، أو نداء أو عويل ، ولكنه يكف عن التوجع والحنين حين تجتاحه موجة من الحب القوى أو الألم المميت ، وقد قيل إن الهوى يعمى ويصم ! فمن يفرق بين القلب والعقل ثم يروز الأول ويهمل الثانى ، لزمه الايجاز فى البيان ، والاقتضاب فى الكلام ، ذلك بأن المبين اذ يسمى شكواه ويدل على بلواه ، إنما يعلن جميع ما يكنه فؤاده من الخلجات ، ويذكر كل مايحز نفسه من اللواعج ، ثم لا يرى شيئاً يتخذه مادة للكتابة ومفتاحا للتحدث والافاضة ! تمثل محباً ملأ الحب جوانحه ، وتغلغل فى حناياه وأحشائه ، واختلط بلحمه ودمه ، شاء أن يصور هيامه المستفيض فى إسهاب وتفصيل ، فلتجدنه أحرص الناس على الايجاز فى التصوير ، وأقلهم تبسطاً فى الحديث ، فما يكاد يسجل هذه الجملة المألوفة المبتذلة : « إنى أحبك » حتى يعيد لفظها ويكرر معناها . سطران لا غير يخطهما المحب ، ثم يرمى القلم فى انكماش ووجوم ! !

ونلاحظ أن النفس الراضية المطمئنة قد تلتوى على الكاتب ، وتجهده عند الاعراب والتبيين ، وتستهلك ملكاته النابهة ، وأدواته القوية . أما الميول المصطدمة والأهواء المتعاكسة ، فهى تظهر فى يسر وسهولة ، ولا تستلزم عبقرية عالية أو مبيناً كبيراً . ويرجع هذا الى أن النفس الراضية المطمئنة ، لا تتطلع لغير حاضرها ولا ترغب إلا فى هدوئها وراحتها ، وهى انما تنطوى على مشاعر حلوة صافية لا سبيل الى الخلوص اليها بلفظ أو كلام ، وحسبها من ذاتها أن تستمتع بما تحس ، وتتملى ماتشعر ، وتذوق ماتحلم ! ولكن الميول والأهواء اذ ترتطم وتتعاكس تثير ألف خاطرة ولاعجة ، من ندامة على الماضى وأمل فى المستقبل ، وخوف من المصير ، وكلها هواجس يفطن لها الكاتب الصغير ، بله الألمعى القدير ، ثم يبرزها مخطوطة واضحة على الطرس ...

مظهر الألم صوت ملجلج ، ووجه أغبر ، ورعشة باليد ، ودمعة فى المحجر . فالاعراب عنه بلفظ قريب لا لبس فيه ولا غموض انما يحتاج الى عقل خصب يتأمل وجه الألم الذى يتحسسه ويدرك قيمته وأثره ، ويعرف أين يتحد مع غيره من العواطف ، ومتى يختلف ثم يعرضه تاماً صحيحاً غير منقوص ولا مشوّه ، وكلما كان التأمل العقلى كثيفاً نافذاً كان الألم أكثر وضوحا وأبهر لوناً وأدق تعبيراً .

تلكم صفحات الأدب الباكى فاقرأوها بامعان ، وفتشوا فيها عن القلب المنفطر ، وتبينوا النفس المعذبة ، ألستم توافقوننا على أن الأديب انما اتخذ العقل مبضعاً يشق مطاوي القلب ، ويسبر غور الضلوع ، وينفذ الى حقيقة البكاء ومصدر اللوعة ؟ !

ولقد حفظ التاريخ القديم فيما حفظ فى ذاكرته الواعية رسائل طريفة انحدرت إلينا كاملة من شيشرون ومدام سيفينيه ، وهى رسائل تفيض بالشكوى وتتنزى يأساً وألماً ، كشف فيها الخطيب الرومانى عن الحب الأبوى حين ماتت ابنته وذهبت الى حيث لا رجعة لها ، وأبانت المركيزة الفرنسية كيف تتوجع الأم الرؤوم حين تزوج ابنتها فى الديار النائية والغربة الطويلة ! وإن الآباء

والأمهات ليبكون أبداً أولادهم وبناتهم عند الموت ووقت الفراق ، ولكنهم لا يستطيعون وصف ما تكابد مهجهم من هموم وأشجان ، وليس الذنب فى ذلك ذنب قلوبهم المترعة المفعمة ، وانما هو ذنب عقولهم القاحلة ، وألسنتهم البكيئة ، وأقلامهم الجامدة

والطريف فى هذا الباب ما يزعمه هيجو من ان الشاعر مصلح عظيم ونبى كريم ، أرسله الله لقومه هادياً الى مواطن الحرية والجمال والحب ؛ وقد دفع هيجو الى هذا الرأى الأرستقراطى غروره المسلكى ، وحماسه الوطنى ، وتطرفه المعهود ، وخياله الواثب . والحق أن الشاعر رجل مثلى ومثلك ، يرى ما نرى ويشعر بما نشعر ، وانما يمتاز بنوع من الامتياز لا ينهض به الى صف المصلحين ولا يرفعه الى مقام الأنبياء ـ يمتاز من غيره من الناس بهذا العقل الحاجى المسجل الذى يقدر على الأبانة عما يرى ويشعر ، ويعرف كيف يصور ما يتجاذبه من المنازع والأهواء

فالتأمل الذهنى كما ترى ضرورة من ضرورات البيان ، فلا تظهر الخلجة النفسية على النحو الذى قذفتها الفطرة ودفعها التطور واكتنفتها الحياة ، الا بالمراقبة الباطنية العميقة . والمعهود انما ينبغى أن يكون على شىء من العلم بمواقع الأعضاء حتى يصف للطبيب المرض الذى ينتابه والداء الذى ينهشه ، ولكن الطفل إذ يتألم لا يفقه ألمه ولا يعلنه الا فى ابهام : يصرخ ويبكى ، وهذا كل ما عنده من وسائل الاعلان وأدوات الأفصاح ! !

إن الأدباء المحدثين ممن نقرأ لهم ونستمع لأحاديثهم فى الصباح وفى المساء ، يلتزمون البساطة فى اللفظ والمعنى ، ثم ينحدرون الى النفس المتأخرة الابتدائية التى لم يصقلها العلم ولم تهذبها المدنية ، فينتزعون منها الشعور الفطير والعاطفة الساذجة ، وهم موقنون أن الأخلاص فى الأدب أو الصدق فى التعبير لا يكون الا حيث يكون الطفل الصغير أو الجاهل الأمى موضوع الحديث ومدار البيان ، ولست أعرف انحرافاً عن الحق وخللاً فى المنطق يشبه ذاك الانحراف وهذا الخلل ، فان الثقافة العلمية لن تفسد النفس والشعور ، ولن تمنعهما عن البوح والظهور

وقد كان المؤلفون اليونان يستصرخون أبطال رواياتهم ، ويستدرون عبرتهم ، ويتعمدون إيلامهم . وكانوا يسهبون فى وصف الألم ، ويذكرون بواعثه ونتائجه ، ويتغلغلون الى كنهه وحقيقته . فهم فنانون حقاً يلتمسون مواطن الجمال المنسجم ، وينشرون مواضع الحقيقة الفنية ، أصحاء الذوق أقوياء الحواس ، يجمعون الى تبدل اللون وتقلص العضلات واختلال الحركات تدفق الألم الداخلى ، وأفاعيله النفسية ، وأثره فى الرءوس والقلوب . وقد ترسم شكسبير خطاهم ونهج سبيلهم ، فكان يصور أوضاع الجسد ثم ينفذ الى الألم ذاته ، ويربط بين اضطراب الحواس اللدنة ، وهيجان النفس الباطنة

ونحسب الآن أننا كشفنا عن الصلة المتينة بين القلب والعقل ، ونبهنا الى خطر التفريق بينهما ، والى قلة الابداع والانتاج عند إهمال التأمل والتفكير ، فان كثيراً من الناس ليحسون أقوى الاحساس ، ويشعرون بأشد الشعور ، ولكنهم لا يعبرون عن احساسهم وشعورهم ، لأنهم ضعاف العقول ضئال التفكير ، وأغلب الظن أن المبين لو راض عقله وصقل ذهنه بالتأمل الدائب الملح لوفق فى رسالته أحسن التوفيق ، ومضى الى غايته كما يرجو ويرجو له النقاد والباحثون

— ٣ —

ما دام الأديب أداة تصوير واعية مرهفة تلتقط ما يتساقط عليها من أشعة الوجود وألوان الطبيعة ، وصور الحياة ، فلن يحس بالفراغ يملأ ذاته ولا بالوحشة تحف نفسه وكيانه ، وهو أبداً يرقب جيشان عاطفته ، ويرصد خفوق قلبه . ثم يستمتع بهواه وشعوره ، والاستمتاع هنا معناه استيقاف الحياة قبل أن تطوى ، والاحساس بها احساساً «مضاعفاً» قوياً . وفى النفس نزوات مبهمة خافتة ، يبصرها الأديب الصناع ثم ينشرها عارية واضحة تكاد من فرط ظهورها تطفر لعين الرائى المشاهد

ويعتقد الأستاذ إميل فاجيه أن التكلف فى البيان أشر ما يبلى به الأديب الفنان من العلل والأدواء ، وهذا حق لا ريب فيه ، وانما الريب فى قول من قال إن مراقبة النفس تقتضى التصنع ، وتؤدى الى التكلف ، لأنها إنما تقتل الطبع الموهوب والهمة الفتية ، والقوة الدافقة . والحق إن المراقبة اذا كانت منظمة متصلة توسع إطار الاحساس ، وتوضح بداءة الشعور ، وتنهض بالقريحة الخابية الهامدة . . فلقد تستكين العاطفة ويخمد أوارها ، وتهدأ حدتها ويبرد لهبها ، وليس هذا مما نسميه النضوب والأمحال ،

وانما هو أثر من آثار الأعياء والنصب الشديد ، كأنما العاطفة المكدودة تنام فى جو مظلم ساكن ، وكأنما القريحة المتعبة تقف عن الشعور فترة غافلة من الزمان ! وفى هذه الحال لقد يأخذ الأديب نفسه بوصف منظر أو تبيان خلجة فيقف مكتوف اليدين متبلد الحس ، جامد القلم

فالمراقبة انما توقظ العاطفة النائمة أو هى تهيجها كلما غفت ، ومن العجب أن تكون سبيلاً الى التكلف المرذول والتصنع المقوت ، وعهدنا بكبار الشعراء أمثال لافونتين ولامارتين أنهم على هيامهم بالتنقيح والمطالعة والتأمل ، كانوا أطلق الشعراء لساناً ، وأرقهم بياناً ، وأسلسهم لفظاً

ومن الأدباء من لا يستوحى نفسه ، ولا يترجم عن طبعه ، وانما يستق من ذاكرته ومحفوظاته وقراءته ، وهؤلاء يكتبون فى غير جدوى ولا طائل ، والمعروف المتداول أنهم يأتون غالباً بتشابيه مستعارة ، وكنايات معادة ، وصور مبتذلة لا تعبر عن « شخصية » ولا تنم عن جديد مبتدع . وانما الرجوع الى الطبع دون الذاكراة الحافظة هو مصدر الأدب الخالد والابتكار القويم ، وليس من شك فى أن التكلف يضمحل ويتزايل أثره ، كلما رجع الفنان الى نفسه وعوّل على طبعه واستق من عبقريته . ولقد يجمل بالمبين أن يتناول ما تمده القريحة فى الوهلة الأولى واللمحة الخفيفة ، وألا يصطنع شعوراً لا يتردد فى أطواء نفسه بل يأخذ ما جادت به العاطفة من غير جهد ولا عناء ! !

وكلمة « أنا » وما يشتق منها قد تكون سبباً مباشراً من أسباب التكلف البيانى ، لأنها تتصف بالشمول وتجمع الشتات كأنما هى عنوان النفس ورمز العاطفة ، والسبيل الذى ينبغى أن يسلكه الأدب الرفيع هو أن يحمل كل لفظ من ألفاظ اللغة جزءاً من النفس وقسماً من العاطفة ، أما « أنا » فما ينبغى أن تكون إلا عيناً تتفجر منها الأفكار والمعانى ، وتصدر عنها الأساليب واللغات ، وتصب فيها فروع الكلام وأغراض البيان

فاذا كان فى هذا عسر ومشقة ، فان الرياضة والمران حقيقان بأن يذللا كل شىء ، وكما يخلق اللاعب المرتاض لجسده الحواجز ليجتازها ، والجبال ليتسلقها ، والوديان ليهبط اليها ، كذلك يخلق المبين لنفسه طرائق ملتوية لممارسها ، مهما تكن تلك الطرائق وهمية خيالية ، مادامت الغاية محمودة تبرر الواسطة ثم تخضعها بالتجربة والعادة

كانت العصور السالفة تقدم للمبين مواد التفكير الصحيح ، وأسباب العاطفة الحية ، وأدوات الكتابة الخالدة . وكانت الظروف والأحوال تنشىء المرء إنشاء جميلا قوياً ، وتعده لحياة شديدة فيها من الجد والنشاط ، ومن الأبداع والانتاج ما يزرى بحياتنا الحاضرة الراكدة ، ويستخف بعيشنا اللاهى الهازل ..!!

كان الطالب إذا نال الشهادة وخرج من المعهد لا يرى بضاعته من العلم إلا قليلة موجزة ، ولا يعتقد فى نفسه إلا القصور والجهل ، فما يزال يقرأ فى الكتب والأسفار ، ويتلقى عمن هو أكبر منه سناً وأوسع تجربة ، حتى يريش ويهرم ، فهو أبداً فى دراسة دائبة ، واختبار متصل . ولم يكن مقياس النبوغ سعة القراءة والرواية ، وانما هو الفهم السليم والنظرة الصائبة . وكانت الآداب على اختلافها دروباً متشعبة تنحدر كلها به إلى النفس الانسانية يطالع منها ما يطالع ثم يجمع المتشابه ويفرز المتشابك ، ويستعمل النابه ويعنى بالضعيف الخامل . أما القصة فما كانت تتلى للتسلى والفاكهة أو لتزجية الوقت والفراغ ، وهى التى قد تبلغ عشرات المجلدات مخطوطة ومطبوعة ، وتلاقى من الرواج والذيوع مايستدعى الدهشة والأكبار ! هذا إلى تراجم المؤرخين ، وتأملات الحكماء ، ومواعظ الزهاد والخطباء ، مما يوقظ العاطفة والشعور ويربى ملكة الانتباه والتفكير . وفى حضرة المرأة والطفل الناشىء كانت تثار فى غير تحرج ولا تقية أعوص مسائل الدين والأخلاق والسياسة والاقتصاد . وكان العرف الدينى والاعتراف الكهنوتى ، وحب الفضيلة يقلق المؤمن ، ويقض مضجعه ، ويضطره إلى مراقبة نفسه وإلى التعبير الدقيق عن خطراته ونياته

ومن ثم كانت النساء اللواتى لم يتعلمن سوى الأدعية والصلوات ، وكان الشبان الذين لم يفقهوا غير المبارزة والرقص — كان هؤلاء جميعاً يعبرون عن مرادهم تعبيراً حسناً ، ويفكرون تفكيراً صحيحا ، فكانت الكتابة عندهم كالمحادثة والحوار ، يمنحونهما الجهد والأناة ، ويقصدونهما بقلوبهم وعقولهم مجتمعة متساندة .

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

١٠ ـ أعيان القرن الرابع عشر

للعلامة المغفور له احمد باشا تيمور

الشيخ حسن الطويل

المالكى

الامام العلامة ، شيخ الشيوخ ، وأستاذ الأستاذين ، وأحد من تفرّد فى مصر بالبراعة فى المعقول والمنقول ، وأتقن العلوم العديدة مع الزهد الصحيح والورع وعلوّ النفس ، والتأدب بآداب الشرع والتمسك بالكمالات .

وهو حسن الطويل بن احمد الطويل بن على ، ولد بمنية شهالة إحدى قرى المنوفيـة ، حوالى سنة ١٢٥٠ كما سمعته من تلميذه الخاص العلامة الشيخ أحمد أبى خطوة . وذكر الشيخ بشـير الظافر فى كتابه اليواقيت الثمينة فى أعيان مذهب عالم المدينة ، أنه ولد سـنة ١٢٥٦ ، وتربى بهذه القرية فقرأ القرآن الكريم وحفظه بها ، ثم انتقل الى طندتا وهو صغير ، فاشتغل بتجويد القرآن وحفظ المتون بالمسجد الأحمدى نحو سنتين أو ثلاث ، ثم حضر للقاهرة واشتغل بطلب العلم بالجامع الأزهر ، فقرأ على شيوخ العصر ، مثل الشيخ محمـد عليش المالـكى فى الفقه والحساب وغيرهما ، وعلى الشيخ حسن العدوى الحمزاوى ، والشيخ ابراهيم السقاء ، والشيخ محمد الأشمونى ، والشيخ محمد الأنبابى ، والشيخ أحمـد شرف الدين المرصفى ، فظهرت عليه النجابة ، وابتدأ فى حضور السعد ، وكان من دأبه فى أول أمره معاكسة المشايخ فى الدروس بكثرة الأسئلة والمناقشات ، حتى حدث مااضطره إلى الأنقطاع عن الأزهر ، وسبب ذلك أن أبناء العمد وأقاربهم طلبوا للدخول فى الجندية بقانون وضع لذلك أمر به سعيد باشـا والى مصر ، ولما كان المترجم من أقارب بعض مشايخ قريته طلب معهم

تجنيده بأمر سعيد باشا

وجند مع من جند فصار واحداً منهم ، إلا أنه لم يسلك مسلك أكثرهم فى التفريط فى الفروض ، فكان يواظب على الصلوات والأوراد ، وكان الوالى يكره من الجند من يصلى ، وحدث أن المترجم جاءه من شيخه الشيخ احمد شرف الدين المرصفى كتاب فيه استغاثة يأمره بتلاوتها عقب كل صلاة ، رجاء أن تفرج كربه وتخلصه من الجندية ، فوقع الكتاب فى أيديهم ، وعدوه لذلك مذنباً ، وكان عقاب المذنبين عندهم اهمال تعليمهم الفنون العسكرية وتشغيلهم فى السكك الحديدية وما أشبهها من الأعمال الشاقة ، فكان المترجم يشتغل فى هذه الأعمال بهمة زائدة تأديباً لنفسه ، لأنه ظن ماوقع له عقاباً على جراءته على مشايخه ، وكان سـعيد باشا يلقب المطيعين من الجند بالفراعنة ، والعاصين المذنبين بالنماردة ، فغضب مرة على النماردة وأمر بطردهم من الجيش ، فخرجوا منه إلا أنهم بقوا تابعين له ، وهم ما كانوا يسمونهم بالعساكر الأمدادية ، وخرج المترجم معهم ، فأقام بقريته مدة ، وكان قبل ذلك يجتمع على الشيخ خالد أحد مشايخ الطريق فرأى أن يسافر اليه فسافر الى بلدته المسماة بالسريرية من أعمال المنية أى منية ابن الخصيب ولزمه بعض أشهر عكف فيها على الاشتغال بالعلم والطريق

فراره

ثم طلب الى الجندية مرة ثانيـة فذهب اليه أبوه ليحضره وأراد الشيخ خالد منعه فلم يرض هو بل عاد مع أبيه الى قريته فوجدهم أهملوا طلبه ، فحمد الله وأراد والده ابقاءه معه فى القرية خوفاً من أن يعود الى الصعيد ، فضاق المترجم بهذا الأمر وخرج

أما اليوم فالذاكرة الحافظة هى غاية الغايات ، يكدسون فيها ضروب العلوم والفنون على مدى ضيق من الزمن كما يكدسون فى المركب أصناف البضائع على غير نظام ولا تؤدة لتقلها إلى المرفأ سالمـة لا أكثر ولا أقل . والمرفأ هنا هو الفحص الذى ينتهى عنده الدرس ، وينسى الطالب بعده ما اكتسب من العلوم . ذلك بأنه تعلم منفعلاً لا فاعلاً ، تعلم كما تدور الآلة من غير وعى ولا تفهم ، فالبرامج واسعة ، والوقت قصير ، والتمثيل منعدم ، والهضم سىء .

وجملة القول أن التربية الحديثة ، لا تتلاءم مع شرائط الصحة العقلية ، ولا تهيء العاطفة للفن والكتابة . وما دام الخروج على البيئة مستحيلا ، فان تهذيب الشعور وتنمية التفكير مطلبان جليلان ينبغى العناية بأمرهما والنهوض بهما ؟

حمص « سوريا »

محمد رضى فيصل